رائحة المكان

عبد الفتاح دياب

عند حضرة المكان اخلع نعليك ، عنده تُحتضر الفواصل والنقط والتشكيل، يُشطب «الدوؤلى والليثى» من ذاكرة اللغة للحظات ، حتى المجاز يتنحّى أمام الحقيقة المجردة من أى حُلى أو طُرز ، حقيقة البساطة حينما تكون أعمق من التعقيد ذاته ، نحن نُطعمه بذكرياتنا وانفعالاتنا ووجداننا ؛ لذا يحتل منا منطقة عميقة فى أغوار نفوسنا

-غير منزوعة الألغام- الاقتراب بحذرٍ شديد ، فهنا أطلالُ حبٍ وهنا أضغاثُ أحلام ،

وهناك ضحكة مُحب ودمعة ولهان ، لقاء ففراق ، عناق فهجر ، ألم فملل فأمل .

لكلٍ منا مكانه الخاص المحفور فى حناياه ، المقرب إلى قلبه والذى قد يكون قصراً فاخـراً

أو كوخاً بسيطاً ، باخـرة أنيقـة أو قـارباً صغيراً ، صفحـةٌ بيضـاء تستعمرها بكلماتـك ،

أو شاطئاً يستعمرك بأسحاره ، سينمـا أو مسرح أو ملهى ، أو حتـى قلـب

obeikan.com

حبيب ،لكل مقامٍ مقال ، ولكن عند المكان- أياً كان-مقالٌ واحد فقط هو» أن تحترمه .

يقول الكاتب (محمد الصالحى) :

إنّ مدينة « الصويرة « المغربية خرافة بين وهمين ، وهم مضى ، ووهم مُرتَجَى ، يؤمها القاصى والدانى عن قصد ، أو عن غير قصد ، ومن زار (الصويرة) عاد إليها ، أو استوطنها أو حلم بالعودة إلى حضنها .

وكذلك الكاتبة « أنايس نين « وهى أمريكية من أصل أسبانى تصف مدينة (فاس) المغربية أيضاً بأنها أنشئت لإمتاع حواسنا الخمس ، مدينة لايمكنك أن تؤوب منها

إلى نفسك إلا ناقصاً .

المكان الذى يستعمرنى هو المكان الذى تتواجد فيه هى ، حينما أغازلها بكلماتى فتتمنّع ، أداعبها فتترفّع ، أعانقها فتنهرنى ، أدنو منها تبتعد ، أبتعد فتقترب ،

أعلن ثورتى بنظرتى الثاقبة ، ألومها بصمتٍ ، تقترب منى جداً ، ألثمها بقبلاتى النازية فيحمر وجهها خجلاً ، همّت بى وهممت بها وأتانى برهان ذاتى التى أولج بها

داخل أعماقها ، أضاجعها مراتٍ ومرات كى تلين لتهدأ من ثورة فضيلتها ، وتستجب لثورة أنوثتها ، صدودها لى ليس صدوداً فحسب بل عمل حربى نابع من فضيلتها ، وفى استجابتها لى كطفلة تُحب أنْ تمدحها ، نضحك كثيراً سوياً ،

وعندما أحزن تربت على كتفى ، بيننا حكايات وحكايات ، بالطبع أتحدث عن حضن الصفحة البيضاء ، الذى يغرينى دائماً ويرجو منى الرذيلة الأدبية (الكتابية) ،

بالفعل ألبى النداء وأشرع فى رسم أفكارى بالكلمات بقلمى ذا اللون الأسود على بياض الصفحات ، هذا تجسيد لصورة الخير والشر فى عالمنا ، ينجلى

فى بياض الصفحة وسواد الكلمات ، بيد أنها تخبرنى بأنّ « الألوان ليست فى صبغتها بل فى كينونتها « ،
فلون كلماتك الأسود ماهو إلا لحن وإيقاع بليغ بين تضاد واقع يبرز الجمال ويُغذيه .
كصديقين نحن وأحياناً كحبيبين ، تساعدنى كثيراً حينما تستفزنى أنْ أكتب ، وأساعدها بدورى وقتما أَفرغ مابجوفها ، نتعانق ونتعارك ، نتجاذب ونتنافر ، ولكن نبقى كسيدة حرة وصديق وفيّ .
إنّ حضن الصفحة البيضاء وباختصار ليس مجرد مكاناً أحبه بل شهوة تمتصنى حتى النخاع !
هناك الأماكن التى تستمد قيمتها من ذاتها ، من اللوحة الفنية المرسومة على خارطة الزمن ، كأن تجلس على شاطىء البحر وتسبح معه بفكرك ووجدانك، وأماكن تستمد قيمتها من شخوصها ، حيث نجلس مع من نحب دون مكان بعينه ، فالفكرة هنا فى قيمة الشخص لا المادة .
المكانُ ذاكرة الزمن ولغة مُفسرة له ، فكم من أماكن تستمد قيمتها من تاريخها وأحداثها الأصيلة ، فجبل « الطور» بسيناء- مثلاً- شاهدٌ على القدسية الإلهية وعلى نبى الله
(موسى) حينما كلم الله تكليماً ، وأهرامات مصر الشاهدة على معجزة (الفراعنة) التاريخية ، وكذلك برج « إيفل « الذى يرمز لمدينة (باريس) وللتقنية الفرنسية الحديثة والذى كان لفترة طويلة المعلم الأكثر إرتفاعاً فى العالم .
للمكان عطرٌ يميزه وذاكرة تحميه ، عطرٌ يعلق بالروح ويحوم بها فى أركان الوجد ثم يتشبث بالذاكرة ، فذاكرة المكان نادراً مانفقدها لأننا وقعنا معها صك الوفاء !
وأختتم بمقولة (غاستون باشلار) : (إنّ المكان فى مقصوراته المغلقة التى لاحصر لها يحتوى على الزمن مكثفاً ، هذه هى وظيفة المكان).